

تفسير البحر المحيط

@ 33 @ إِنْ شَاءَ كَاشِفُوكَ الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ * يَوْمَ
نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ إِنْ شَاءَ مُنْتَقِمُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ
قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ * أَنْ أَدَّسُوا إِلَيْنَا عِبَادَ
اللَّهِ * إِنْ شَاءَ لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنْ شَاءَ
بِئْسَ لَطَّافٌ مَّبِينٌ * وَإِنْ شَاءَ عَذِّبُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرَوْهُمْ
* وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَأَعْتَزِلُكُمْ * فَدَعَا رَبَّهُ أَنْ هَؤُلَاءَ قَوْمٌ
مُجْرِمُونَ * فَأَسْرَبَ بِهِ بَعْدَآدَىٰ لِئَلَّا يَرَىٰكُمْ مُتَّبِعُونَ * وَأَتْرُكُ
الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُنْدٌ مَّغْرَقُونَ * كَمْ تَرَكَوْا مِنْ جَنَاحَاتِ
وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * وَنَعْمَةً كَانُوا فِيهَا فَكَاهِنَ *
كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ * فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ
وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ . .

هذه السورة مكية ، قيل : إلا قوله : { إِنْ شَاءَ كَاشِفُوكَ الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ
عَائِدُونَ } . ومناسبة هذه السورة أنه ذكر في أواخر ما قبلها : { فَذَرَهُمْ
يَخْضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوْعَدُونَ } ، فذكر
يوماً غير معين ، ولا موصوفاً . فبين في أوائل هذه السورة ذلك اليوم ، بوصف وصفه فقال :
{ فَارْ تَقَبُّ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ } ، وأن العذاب يأتيهم من
قبلك ، ويحل بهم من الجذب والقحط ، ويكون العذاب في الدنيا ، وإن كان العذاب في الآخرة
، فيكون يومهم الذي يوعدون يوم القيامة . والظاهر أن الكتاب المبين هو القرآن ، أقسم
به تعالى . ويكون الضمير في أنزلناه عائداً عليه . قيل : ويجوز أن يراد به الكتب
الإلهية المنزل ، وأن يراد به اللوح المحفوظ ، وجواب القسم . وقال الزمخشري وغيره :
قوله : { إِنْ شَاءَ أَنْزَلْنَاهُ } ، على أن الكتاب هو القرآن ، ويكون قد عظمه تعالى
بالإقسام به . وقال ابن عطية : لا يحسن وقوع القسم عليه ، أي على إنا أنزلناه ، وهو
اعتراض يتضمن تفخيم الكتاب ، ويكون الذي وقع عليه القسم { إِنْ شَاءَ كُنَّا مُنْذِرِينَ }
. انتهى . قال قتادة ، وابن زيد ، والحسن : الليلة المباركة : ليلة القدر . وقالوا :
كتب الله كلها إنما نزلت في رمضان ؛ التوراة في أوله ، والإنجيل في وسطه ، والزبور في نحو
ذلك ، والقرآن في آخره ، في ليلة القدر ؛ ويعني ابتداء نزوله كان في ليلة القدر . وقيل
: أنزل جملة ليلة القدر إلى البيت المعمور ، ومن هناك كان جبريل يتلقاه . وقال عكرمة

وغيره : هي ليلة النصف من شعبان ، وقد أوردوا فيها أحاديث . وقال الحافظ أبو بكر بن العربي : لا يصح فيها شيء ، ولا في نسخ الآجال فيها . .

إنا كنا منذرين : أي مخوفين . قال الزمخشري : فإن قلت : { إِنْ زُلْزَلَتْ أَسْوَاطُ الْمُنْذِرِينَ * فَرِيحًا يُغْرِقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ } ، ما موقع هاتين الجملتين ؟ قلت : هما جملتان مستأنفتان ملفوفتان ، فسر بهما جواب القسم الذي هو قوله تعالى : { إِنْ زُلْزَلَتْ أَسْوَاطُ الْمُنْذِرِينَ * فَرِيحًا يُغْرِقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ } ، كأنه قيل : أنزلناه ، لأن من شأننا الإنذار والتحذير من العقاب . وكان إنزالنا إياه في هذه الليلة خصوصاً ، لأن إنزال القرآن من الأمور المحكمة ، وهذه الليلة مفرق كل أمر حكيم ، والمباركة : الكثيرة الخير ، لما ينتج □ فيها من الأمور التي تتعلق بها منافع العباد في دينهم ودنياهم ، ولو لم يوجد فيها إلا إنزال القرآن وحده ، لكفى به بركة . انتهى . وقرأ الحسن ، والأعرج ، والأعمش : يفرق ، بفتح الياء وضم الراء ، كل : بالنصب ، أي يفرق □ . وقرأ زيد بن علي ، فيما ذكر الزمخشري : نفرق بالنون ، كل بالنصب ؛ وفيما ذكر أبو علي الأهوازي : عينه بفتح الياء وكسر الراء ، ونصب كل ، ورفع حكيم ، على أنه الفاعل بيفرق . وقرأ الحسن : وزائدة عن الأعمش بالتشديد مبنياً للمفعول ، أو معنى يفرق : يفصل من غيره ويلخص . ووصف أمر بحكيم ، أي أمر ذي حكمة ؛ وقد أبهم تعالى هذا الأمر . .

وقال ابن عباس ، والحسن ، وقتادة ، ومجاهد : في ليلة القدر يفصل كل ما في العام المقبل من الأقدار والأرزاق والآجال وغير ذلك ، ويكتب ذلك إلى مثلها من العام المقبل . وقال هلال بن أساف : كان يقال : انتظر والقضاء في رمضان . وقال عكرمة : لفصل الملائكة في ليلة النصف من شعبان . وجوزوا في أمراً أن يكون مفعولاً به بمنذرين لقوله : { لَّيْلٌ يُنْزِلُ الرِّسَالُ شَدِيدًا } . أو على الاختصاص ، جعل كل أمر حكيم جزلاً فخماً ، بأن وصفه بالحكيم ، ثم زاده جزالة